تطمح الى تغيير الواقع او الى راديكالية فاشية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسة. و يمكن لادراك ما ان يتحدى الرؤية القائمة، ولكن يمكنه، ايضاً، ان يعمقها. ويتوقف ذلك كله على مركب هائل من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية والعصبية. ولذا، على الرغم من ان ادراك العربي الحقيقي يمثل لحظة كشف لنفس الحقيقة، بالنسبة الى كل الصهيونيين ، الا انها تترجم نفسها الى استجابات صهيونية واشكال سلوكية متباينة سنحاول دراستها بتقسيمها الى ثلاثة انماط او نماذج:

١ ـ هناك نمط من الصهيونيين ادرك طبيعة الجرم الكامن في عملية تغييب العرب هذه، فتنكر للرؤية الصهيونية تماماً وتخلى عنها، وعاد الى اوروبا. وهناك كثيرون من حزب بوعالي تسيون عادوا الى الاتحاد السوفياتي بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا في الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا في الارهاب الصهيوني. ولكن هؤلاء قلة نادرة على ما يبدو. وعلى كل، فانهم يختفون تماماً من التواريخ الصهيونية ومن الادراك الصهيوني (اليهودي الغائب). ولذلك، فهم لا يؤثرون، من قريب او بعيد، في البرنامج السياسي الصهيوني او سلوك الصهيونيين نحو العرب. ولكن لعلنا لو اعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين، لوجدنا ان هذا النمط اكثر شيوعاً مما نتصور، ولعله يكون من المفيد والطريف في الوقت ذاته ان يقوم احد الباحثين العرب بكتابة دراسة في هذا الموضوع.

٢ ـ هناك نمط ثان من الصهيونيين ادرك العربي الحقيقي، ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانباً، وبذل محاولات يائسة لكي يعيد صياغة المشروع الصهيوني بطريقة تستوعب وجود العربي الحقيقي وتأخذه في الحسبان. ولكن من الملاحظ ان مثل هذه الشخصيات تحولت، بالتدريج، الى شخصيات مبهمة وهامشية، من وجهة نظر صهيونية، تنتمي الى منظمات هامشية وتدافع عن رؤى هامشية لا تؤثر في المركز والممارسات الاساسية. ولعل سيرة ابشتاين وآرثر روبين، وهو مسؤول صهيوني آخر عن الاستيطان، وغيرهما خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهيونيون، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربي، ادركوا مدى تركيب الموقف، فطرحوا صيغا مركبة نوعاً، مثل الدولة ثنائية القومية، وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية، واسسوا جمعية بريت شالوم (ثم جمعية ايحود) لاجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومي ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت، في نهاية الامر، تعبيراً عن ضمير معذب اكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ماغنيس هو من اكثر الشخصيات المأساوية في تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني. فقد ادرك الخلل العميق في وعد بلفور، منذ البداية، بانكاره وتغييبه للعرب، وادرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهيونيين والعرب، ولذا قضى حياته كلها يحاول ان يصل الى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الادراك النادرة دون جدوى. وانتهى به الامر الى ان تنكّر له مجلس الجامعة العبرية التي كان يترأسها.

ويمكن ان نذكر، في هذا السياق، احاد هعام نفسه، الذي تعلم ان يعيش مع التناقض الحاد، بعد ان رأى الدماء العربية النازفة، وبعد ان ولول وكأنه احد انبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لما اقترف من آثام، نجده، بعد ذلك، في لندن، مستشاراً لحاييم وايزمان، في الفترة التي سبقت اصدار وعد بلفور، يدلي له بالنصيحة بخصوص كيفية الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكره، من قريب او بعيد، بالعربي الحقيقي او بالدماء النازفة. وينتهي به المطاف ان يستقر هو ذاته على الارض الفلسطينية، بكل ما يحمل ذلك من معاني اغتصاب وقهر، ولكنه، حتى وهو في فلسطين، بعد وعد بلفور، ظلت تخامره الشكوك بخصوص المشروع الصهيوني، وظل موقفه مبهماً حتى النهاية.

وهكذا نجد ان محاولة اعادة صياغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربي الحقيقي أديا الى